القصص

من أساطير الإغريق

بجماليون المثّـال

أسطورة الفنان الذي عشق أحد تماثيله

للأستاذ دريني خشبة

في مدينة أماذيس ، الراقدة كالحمل بين مهاوى الجبال على شاطىء قبرص الجنوبي ، كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم ، وانزواء عن مشاغل الحياة ، وهرب من الناس . كان يأوي الى تمثله إذا تنفس الصباح ، ويكب على عمله حتى توارى الشمس بالحجاب ، فيأوي إلى فراشه ، سادر النفس ، محمود القلب ، مكتئباً حزيناً

ولم يكن حزنه من نوع هذه الأحزان التي تتعارفها قلوب أبناء آدم ، بل كان حزناً فريدا في نوعه ، غريباً في أسبابه ، شاذاً في دواعيه ، حتى لنحسب أن أحداً من الناس لم يشق عقله من قبل . . . . ولا من بعد

كان في بجماليون صدود عن الناس شديد ، لاتراهم جديرين بتودد ، ولاحفيّين بمؤاخاة . ومع أنه كان يضفي من عبقريته على تماثيل الآلهة التي طالما تفننت فيها يده الصناع ، فكان يخرجها على نسق الفاتنات الحسان ، وفي سمات الغيد القيان ، فانه لم يصبُ مرة إلى امرأة ، ولم ترتبط أسبابه بفتاة . فكأنه كان يسمو بحبه على النساء ، وإن كن في الحقيقة صاحبات وحيه ، وفيض نبوغه ، واللّمع الخاطفة التي يتجه شطرها مثله الأعلى

ولم تكن هذه الحياة الصحراوية التي يحياها لترضيه ، ولا تلك المعيشة الآليـة التي أغطشت أيامه لتقنع خياله الخصب ، وقلبه الرحب . لقد كان يقف منقبض الصدر ، مغلول الروح ، أمام هذه الدُّمى الصامتة ، والتماثيل الخرساء ، التي صنعها لأبولو ، ومينرڤا ، وديانا ، وكيوبيد ، وڤلـكان !

ولقد كانت المناحت والأزاميل ، والمثاقب والمناشير ، والمبارد والمناعم ، وكل عدده تثير في نفسه السخط على الحياة ، والبرم بالأيام ، كلما فكر في حاله فعلم أنه يحيا بلا حب ، ويعيش بلا أمل ، ويعمل بلا غرض ، ويسعى الى غير مطمح !

وبينما هو في يقظته النائمة هذه ، إذا بحجارين يحملون رخامة كبيرة ، على جرارة ضخمة من هـذه الجرارات الثقال ، التي ترى كثيراً في محاجر اليونان ، يقفون أمام المثل ، ويطرقون باب بجماليون ، فينقدهم ثمن الرخامة ، وينصرفون كل إلى طيّته

وكأنما كانت هذه الرخامة ، على ثقلها الهائل ، وحياً خفيفاً من السماء ، أو آية من آيات الأولمب ، هبطت على هذا المثّال المهموم ، فبدّلت يأسه أملاً ، وقنوطه المظلم رجاء نيّر الآفاق !

فانه لينظر اليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذي سيولده منها ، وإنه لينزع ملابسـه ، ويضفي عليه ملابس العمل ، ثم يتناول إزميله ومنحته ، ويهوي على الرخامة مستلهماً الحول والقوة من : « ڤينوس ! ! »

« يا ڤينوس الجميلة ، يا ربة الحسن والحب ، يا من تسبح لك القلوب العاشقة ، وتلهج باسمك النفوس الوامقة ، يا سر الورد الجميل ، وبسـمة الفنن الضاحك ! يا أم كيوبيد الحالم ، وبنت ديون(١) الباسمة ، يا ڤينوس الجميلة ، العون العون يا ڤينوس ! »

وهكذا لبث هنيهة يصلي ، ثم أخذ في عمله ، وكأن فـكرة علوية تنزلت على فؤاده ، وامتزجت بشغاف قلبه ، فراح يصورها ويمثلها ، في هذه الرخامة النقية كالندف ، البيضاء كالثلج . بل كأنما استجابت ڤينوس ربة الحب لصلاته ، فأودعت في يده نفحاتها المباركة . فما دق دقة ، أو نقر نقرة ، إلا وتمثل ڤينوس الجميلة أمامه ، ناذراً لها هذا التمثال ، برغم التماثيل البارعة التي نحتها لها ، والتي تملأ معابد اليونان وأقداسهم

(١) في الميثولوجية اليونانية أن زيوس كبير الآلهة كان متزوجاً ، وزير . . . وبات . فمن زوجاته ديون التي أولدها ڤينوس

وأقبل على عمله بروح جديدة ، ويد لا تكل ، فلم يكن يحول بينه وبينه إلا الليل يرخى سدوله ، وإلا سِنَة من النوم ترقص فى جفنيه ، فإذا نام تتابعت الرؤى ، وتلاحقت الأحلام ، كل منها يبدى له ناحية كان يجهلها من جمال ڤينوس !

ولقد بدا له ، كفنّان ، أن يروّح عن نفسه بيوم يقضيه فى الأدغال ، وبين مسارب المياه ، لكى يجدد نشاطه ، ويبتعث ما خمل من ذهنه ، وخبا من خياله ، لطول ما أكب على العمل ؛ فانطلق ذات صباح إلى سيف البحر يناجى أپوللو ، وهو يوقظ الشمس من خدرها ، فتملو به فى مركبتها الذهبية فوق الأثباج ! وظل يعلو ويهبط ، ويروح من هنا غادياً الى هناك ، حتى شارف اليوم أن ينتهى ، وعاوده هواه الملح ، فندم على ما قتل من ساعات فى هذه الراحة الخاملة ، والفسحة الباطلة ، فعاد أدراجه إلى الممثل ، مستغفراً فى طريقه الطويل ڤينوس !

ووصل ما انقطع من صنعته ، فكان يستذكر أحلامه ليضفيها على التمثال ، ويستوحى السماء فتلهمه من أديمها الصافى ، وتشيع فى يديه وقلبه بطهرها ونقائها ، لتنتقل من ثمة سحراً وفتنة فوق تلك العضلة ، وتحت ذياك الأبط ، وبين انفراج هذين الثديين ، وبالقرب من المكمن ، وحول الفخذين ، وعند هـــذا الأنف الأغريقى الأشم ، وملء ذاك الذقن الدقيق ، والعنق الرقيق ، ولفتة الحدقتين ، وانفراجة الشفتين ، وتبسيم الثغر ، وتكويم الشعر ، وتمليس الردف ، وتدوير الكعبين . . . . . وتبارك يا ڤينوس !

لكأن پجماليون يحس الحياة تسيل من أزميله الحنون ، فوق هذا الجوهر المكنون ! وكان يتقدم فينظر ، ويتأخر فيرى ، ويميل من هنا ، وينثنى هناك ، ثم يهطع إلى علٍ ، وينحنى إلى أسفل ؛ ليتفقد التمثال من جميع نواحيه ؛ فماذا رأى ؟ لقد استطير من الفرح ، ومادت أعطافه من الخيلاء ! ولكنه سكن قليلاً ، وانطلق يتحدث إلى نفسه : « ويحى ! لم صنعتك أيها التمثال ، ما دمت قد بلغت هذا الجمال ولا تتكلم ؟ أنا پجماليون التعس ، الذى يعيش فى هذا العالم القفر ، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة ، لا أنيس لى ، ولا قلب ينبض بحبى ، فينبض قلبى بحبه ؛ ولا نفس تصلى لى ، فأصلى من أجلها ! تكلم أيها الرخام الصامت ، وانفرجا بكلمة واحدة أيتها الشفتان الساخرتان ! أنا پجماليون ! أنا صانعك أيتها الأنثى المتحجرة . . . تكلمى ، ردى علىّ ، فوحق ڤينوس المعبودة لقد أودعتك سر روحى ، ولغز حياتى ! أوه ! ألا تردين علىّ پجماليون المسكين ؟ آه ڤينوس ! النجدة يا ڤينوس ! أنا لا أصلى إلا لك يا ڤينوس . . الغوث الغوث ! . . . »

وظل المسكين مكباً على هذه الدمية التى صورها بقلبه كله ، وروحه جميعها ، يشكو إليها كأنها تسمعه ، ويبثها كأنها تصغى اليه ؛ ثم انتهى حاله إلى هيام شـديد ، وحب ودنف ، ولوعة وصبابة ؛ وانقلب عشـقه المبرح إلى لون كاسف من الوجد ، وضرب شديد من أمر ضروب الحزن ؛ مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب . إذ كيف يعشق هذه الكتلة المجسمة من الرخام ، وهى مما صنعت يداه ؟ وأى أمل له فى هذا العشق الشاذ ؟ لا ريب أنه ضرب من الجنون ، ما له من ضريب !

ولج به هواه ، فأحضر عصبة من الحمالين الأقوياء ، نقلوا له تمثاله إلى ردهة الآلهة — كما كان يسميها — وهى صالة واسـعة فى الطابق الثانى من البناء الذى فيه ممثله ؛ وقصد إلى أمهر الصاغة وتجار اللآلىء ، فاشترى ما وسـعه من الحلى البالغة والجواهر النفيسة ؛ وعاد فقرّط الأذن ، وقلد الجيد ، وتوّج الرأس ؛ ثم هام فى المروج الخضر ، والحدائق الغناء ، يجمع الورود والرياحين ، كيما ينثرها تحت قدمى التمثال !

وتحولت الردهة الى معبـد من معابد البوذية المقدسة ، بما عكف يحرقه من مقتنى الند ، وفوّاح الرند ، فى مباخر المرمر الجميل المُصَفَّفة حول قاعدة التمثال

وتلف تلفاً شديداً من هذا الغرام العجيب ، فلم يكن يكتفى بالعبادة فى الحب والخبوت بين يدى ذلك الصنم المنتصب للفتنة ، بل كان يشركه فى كل أمره ، ويعرض عليـه جميع شأنه ، حتى القراءة ! فطالما كان ينشده من دواوين الشعراء ماجادت به القرائح وشدت به الألسن ، وتغنت بألحانه قلوب العاشقين !

معذور پجماليون ! لقد تعب وراء الحب ، ولـكنه لم يلق هذه الغيداء الفاتنة ، التى تستطيع التسلط على مشاعره ، والهيمنة على فؤاده ، وكان يتخيّل روعة الجمال فلا يجدها مجتمعة إلا فى هذا التمثال الذى نحته لهذه الأنثى ، فعبده ، وراح يتمنى على الآلهة الأمانى ، أن تنفخ فيـه روحها ، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش

* * *

وبينما هو نائم فى هدأة فجر اليوم التالى ، إذا به يصحو فجأة على لغط شديد ، وهرج عال فى الشارع الذى يقع فيـه بيته . فينهض الى النافذة ، ويرفع الستر ، ويفتح أحد المصاريع قليلاً ، ثم يحنى رأسه ليرى . وإذا موكب زاخر من غوغاء المدينة يحمل

تمثالاً كبيراً من تماثيل ڤينوس التي صنعها بجماليون ؛ وإذا الدهماء ينشدون الأناشيد الشعبية ، ويرسلون في غبشة الصبح أغانيهم (البرجوازية) الجميلة . . وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة ڤينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها الناعين ثلاث مرات كل سنة ؛ فلما عرف بجماليون أن الحفل حفل ڤينوس ، أسرع فارتدى أبهى ملابسه ، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمي تمثاله ، وهرول على الدرَج ، ثم انفتل في الشارع ، واندمج في صميم الشعب الذي يلهج بالصلوات والأدعيـة باسم ڤينوس . ثم ما هي إلا هنيهة ، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الأطفال والسُّذَّج ، ويردد من الصلوات ما يرددون

ولم لا ؟ هل لحظة من الزمان هي خير من هدأة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول آراد الصباح ، إلى آلهة السماء ، وأرباب الأولمب ، فتسمع وتلبي ؟

وكان كل همه أن ينتهي هذا الحشد الهائل إلى المعبد ، حيث يستطيع أن يرتل دعاءه ، ويتمم بصلاته

وقد تنظَّر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التي اعتادوا أن يقوموا بها في مثل ذلك اليوم ؛ وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة ، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من ڤينوس . ولما لم يبق في المعبد إلا كهنته ، وأفراد من الأتقياء الصالحين ، يصلون صلاتهم ، ويغمغمون بأدعيتهم ، تقدم بجماليون في روعة التقى وخشوع الورع ، ووقف خابتاً أمام المذبح ، حيث تصاعد ألسنة البخور المعطر ، حاملة الأرج الشذي من لهب المحترقة إلى السقف ... والسجف ، فتكسب الهيكل جوه القدسي البديع . ثم ألقى في اللهب بحفنـة من فتيت الكافور والمسك ، وطفق يرتل هـذا الدعاء الطويل : « ڤينوس الكريمة البارة ، يا ربة الحب الطاهر ، والهوى البريء ، أيتها القـديرة على كل شيء ، المتصرفة في جدود العاشـقين ، وحظوظ المدنفين : إصغي إلي ، ولا ترفضي دعائي : منذ اهتديت اليك ، وأنا عبدك القانت لك ، الهاتف باسمك في الغدو ، المصلي لك في الآصال ؛ لا أني عن ذكرك ، ولا يفتر لساني عن التسبيح لك ، والنسك من أجلك ؛ باسمك أقبل على فني ، ومنك أستلهم وحي العبقرية ، فأنت لي كل شيء

ولقد أيقظتني صلوات الشعب لك من أحلامي الجميلة بك ، فلم أطغ ولم أستكبر ، بل هرعت اليك ، أتوسل بك ، وألتمس البركات منك ، فحنانيك يا ڤينوس !

حنانيك يا ربة الحب ، وجابرة القلوب الكسيرة ، والنفوس الحائرة !

أنت ، من غير ريب ، تعلمين ما ألم بي من برح هذا الهوى الطارئ ، وما تام قلبي من حب هذه الدمية التي صنعتها باسمك ، ونذرتها لك ، فدلهتني ، وشـدهت روحي المبلبلة ، وصارت لي أعذب الأماني وأعز الآمال . وهي بعـد رخامة لا روح فيها ولا نأمة ، أكلمها فما ترد ، وأناجيها فما تجيب ، وأغني لها فما تبتسم !

أنت قديرة يا ڤينوس ! فانفخي فيها من روحك ، وانشري الحياة في أركانها ، وامنحيها النبضات والأنفاس

حنانيك يا ڤينوس ! وسلام لك من قلوب العاشقين ! »

وما كادت صـلاته تنتهي ، حتى انهمر الدمع من عينيه يروي قدمي التمثال المنتصب في المحراب . فانبعث الشرر عالياً من المحرقة حتى أضاء قبة الهيكل ، والتمع في جميع أرجائه ، وأقبل الكهنة والمصلون يباركون بجماليون ويهنئونه . لأن انبعاث الشرر هكذا ، عقب الصلاة ، هو في اعتقادهم دليل رضى الربة ، وآية تلبيتها واستجابتها ! !

ولـكن مثَّالنا لم يشعر بقلبه تثلج ، ولا بنفسه تهدأ ، بل بالعكس ، أحس كأنما الحياة تتدجى أكثر من قبل ، ويحلولك كل شيء في عينيه ، وشعر كذلك بقنوط قاتل ينفذ إلى صميمه ، فيطفئ فيه ما رجِّي من الآمال البيض ، والأماني العذاب ! فتعثر إلى الباب غير آبه لما حوله من الآس النضود في أنحاء المعبد ، والزهر المبثوث في صحنه الرحيب . وما برح بين ونى وبطء ، حتى بلغ باب منزله ، فولج متساقطاً على نفسـه ، وانبطح على أول سلاليم الدرَج لا يحس ولا يعي !

* * *

وغفا إغفاءة مريضة ، فبدا له أنـه يحمل إرزبة هائلة ، يهوي بها على رؤوس الدُّمى ، ويحطم بها التمـاثيل المنتشرة في ردهة الآلهة . . . إلا تمثال ڤينوس الجديد ، المرصع باللآلئ واليواقيت ! ففزع فزعة مروعة ، ونهض يعـدو الى الصالة ، يتفـقد التماثيل . . . فما راعه إلا أن يسمع صوتاً رقيقاً يناديه :

« بجماليون ... بجماليون ... إرق الى هنا ... هلم الي !! »

من ؟ صوت من هـذا ؟ إنه صوت سحري لا عهد لبجماليون به !! »

وقفز قفزات كان بها في الطابق الثاني ؛ ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب في المكان الذي غادره فيه ... » ... أين ؟ ويحي ! لصوص ! »

ولـكن الصوت الرقيق الرنان عاد يطن . . . ويرن « لا . . ولـكنها ڤينوس ! » والتفت بجماليون فرأى غادة هيفاء فى طبق تمثاله ونسجه ، متكئة على الأريكة التى طالما وضعها أمام التمثال وأنشد الأشعار ؟ !

« من أنت أيتها المعبودة ؟ »

« لست معبودة ، ولـكننى هبة ڤينوس لك ! أنا جالاتيا . . تمثالك المكنون ! »

« وكيف ؟ أنا لا أصدق . هذه خديعة لاشك ! »

« وكيف تخـدعك السماء يابجماليون ؟ أتريد أن تكفر بآلاء ڤينوس ؟ »

« لا . . لا . . لا أريد أن أكفر . . وحاشاى .. ولـكن كيف حُرْت أنسية ، ومن وهبك الحياة ! »

« هذا سر ڤينوس . وهذه قبلاتك ماتزال مطبوعة على قدمىّ ! »

« بالسعادة ! »

« انظر الى هاتين الشفتين القرمزيتين ، وهذين الخدين الموردين ، وتينك العينين الزرقاوين . هل استطعت أن تموه تماثيلك بهذه الأصباغ الڤينوسية ؟ »

« وانظر الى الأنفاس الحارة التى تتردد فى صدرى ، هل وسعك مرة أن تبثها فى إحدى دُماك ؟ »

« حاشا . حاشا »

« إذن فهلم الى أحدثك حديثى »

(فدنا منها بجماليون المشدوه)

ـ « بجماليون ! لقد استجابت ڤينوس دعاءك ، وقبلت صلاتك ، وحضرت الى هنا إذ كنت أنت فى الهيـكل تبـكى وتنتحب ، فمنحتنى الحياة ، وعلمتنى من العلم مالم أكن أعلم

ـ « ولـكن كيف يحق ڤينوس عليك ياجالاتيا »

ـ « كنت منتصبة كما وضعتنى على تلك القاعدة الناصعة ، فأحسست حدقتى تتحركان ، وإذا بى أرى ڤينوس الجميلة أمامى ، تأمرنى أن أدلف نحوها ، ففعلت ، وكنت أحس كأن ثلجاً ينفذ من كيانى ، وأن حرارة تشيع فى أركانى ، وكانت ڤينوس تقول لى . . . « تعالى . . . تعالى ، وكونى ربّة هذا البيت . احميه واحرسيه ، وانشرى السعادة فيه ! ! هلمى الىّ ألقنك دروس المحبة والحياة . . . » ثم إنها نفثت فى أذنىّ نفثات تعلمت بهـا هذه الـكلمات . وأسبغت علىّ هـذا الثوب الحريرى الذى لابد قد رأيته على تمثالها فى الهيـكل . . . ليشهد لك أنها هى التى منحتنى الحياة . . . ومنحتك الحب ! »

ـ « وماذا ؟ وماذا ياحبيبتى جالاتيا ؟ »

ـ « ثم تقدمت إلى فنولتنى قبلة مشهاة لن أنسى ما حييت أسرها . ودعت لى ولك بالوفاق الأبدى ، والاخلاص السرمدى ، لنكون آية السماء فى هذه الأرجاء ! وابتسمت ابتسامة أرق من إطباقة أوراق الورد ، ولم أعد أراها . . . »

وأتمت جالاتيا حديثها ، فاستقر بجماليون فى أحضانها !

دريني خشبة

النيـــــل

يشق البحــــــار

علم مصر الخفاق يرف على باخرتكم المصرية الصميمة

النيـــــل

شركة مصر للملاحة البحرية

أعدتها لكم بأوفر أسباب الراحة والرفاهية

صالونات فخمة — قمرات فاخرة (Lux) بحمامات وصالونات خاصة

تليفونات اوماتيكية — مطبخ راق — جراج للسيارات

أجور السفر فى الصيف من الاسكندرية الى جنوا أو مرسيليا على السواء

١٦ جنيهاً للدرجة الأولى — ١٢ جنيهاً للدرجة الثانية — ٨ جنيهات للدرجة الثالثة

تخفيض فى تذاكر الذهاب والاياب ، وتخفيض مخصوص لتذاكر العائلات ، ولحضرات موظفى الحكومة

رحلات منتظمة كل أسبوعين (يوم الخميس) من الاسكندرية

ابتداء من يوم الخميس ٢٣ مايو سنة ١٩٣٥

احجزوا محلاتكم من الآن . خابروا المركز الرئيسى للشركة بعمارة بنك مصر بالقاهرة — وفرعها بالاسكندرية بشارع فؤاد ومكاتب مصر للسياحة ومحلات كوك ومكاتب السياحة الأخرى